

تكلمنا في الأسبوعين الماضيين عن عمل الله في الإنسان، ووعده له القائل "ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب". وشرحنا كيف أن الله هو الذي يبدأ العمل من أجل خلاص الإنسان.

غير أنه على الرغم من عمل الله ووعده، يوجد شيء يحارب الإنسان، وهو الشك

الشك¹

يشك الإنسان في معونة الله في حفظه، وفي وعوده...

بل قد يشك أحياً في قدرة الله على إنقاذه...!

هذا الشك له جذوره من بدء البشرية، من قصة الإنسان الأول، إذ غرس الشيطان هذا الشك في قلب الإنسان: كيف تكون الشجرة سجدة المعرفة، ويمنع ربكم هذه المعرفة؟ هل هذه محبة من الله لكم؟، أم هو لا يريدكم أن تكونوا مثله...؟!

في قصة جذعون، نرى الشك في معونة الله وحفظه:

ظهر ملاك الرب لجدعون وقال له "الرَّبُّ مَعَكَ يَا جَبَّارَ الْبَاسِ" فرد جذعون قائلاً: أَسْأَلُكَ يَا سَيِّدِي، إِذَا كَانَ الرَّبُّ مَعَنَا فِيمَا دَأَبْتُنَا كُلُّ هَذِهِ؟ (البلايا) وأين كل عجائبه التي أخبرنا بها آباءنا (قض: 12، 13) ...

أنه شك في وجود الله في حياة الإنسان، شك في عنایته واهتمامه. سببه المتاعب وصغر النفس وضغط الأعداء..

كثيرون شكوا في عمل الله معهم، فقادهم الشك إلى خطايا عديدة: مثل ذلك رفقه أم يعقوب. وعدها الله وهي حبل بيأن ابنها الكبير(عيسو) يستعبد للصغير (يعقوب) (تك: 23). إلا أن المدة طالت، ولم يأخذ يعقوب البركة، وأوشك اسحاق أن يمنح البركة لعيسو. وهنا بدأ الشك في وعد الله يحارب رفقه، وتقدمت لتعمل بنفسها عملاً تنفذ به الموقف!

شك رفقه في وعد الله، سببه طول الانتظار دون أن تتحقق الموعايد وقادها الشك إلى الكذب والخداع والخيل البشرية.

طول المدة جلب الشك: الظاهر أن الله قد نسيني، أو نسي موعديه؟ لا يبدو أنه سيعمل...!

طول المدة أيضاً، تسبب في الشك حتى لإبراهيم أبي الآباء:

وعده الله بنسل مثل نجوم السماء ورمل البحر، ومرت سنوات طويلة، ولم تلد سارة، فبدأ الشك يدخل إلى قلب إبراهيم. ولجا إلى طرق بشرية، فأخذ هاجر التي ولدت له إسماعيل. ولما طالت المدة أيضاً ولم تلد سارة، قال إبراهيم للرب "آتِتْ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ" (تك: 17: 18). ولكن الله أصر على وعده، فأجاب إبراهيم "بَلْ سَارَةُ امْرَأْكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبْدِيًّا لِّنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ".

يا قليل الإيمان، لماذا شكت؟". مهما طالت المدة، انتظر الراب" انظروا ماذا يقول المزمور؟ يقول "انتظر الراب". تقو، ليتشدد وليتشاجع قلبك، وانتظر الراب". وإلى متى ننتظر؟ "انتظر الراب من محرس الصبح حتى الليل" أي طول الوقت، حتى وصلت إلى الظلم، إلى الليل، لا تشک.

كثير من الناس كانت لهم مشاكل، استمرت سنوات طويلة، ثم حلها رب أخيراً.

إيمانك بالله، لا يصح أن يعتمد على الحواس، أو على الظروف الخارجية، إنما على ثقتك الداخلية بالرب.

إن ثقتك بالله، ومحبته وعنایته، وثقتك بمواعيده وصدقه، وثقتك بقدرته حتى على عمل المسيح.. هذه الثقة هي التي يجعلك لا تشک، مهما كانت الظروف، ومهما حارتكم الأفكار.

كما شك إبراهيم لطول المدة، هكذا شكت سارة. وحتى حينما أعلن لها الله أن وعده سيتحقق في العام المقبل، ضحكت في داخلها، وقالت "أَبْعَدَ فَتَائِي يَكُونُ لِي تَعْمُمْ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاحَ؟" (تك: 18: 12).

لقد شكت سارة، لأن الظروف المحيطة، (السن.. والصحة.. والقوة) أقنعتها باستحالة تحقيق وعد الله "فناي، وَسَيِّدِي قَدْ شَاحَ"

وهكذا وبخها الله قائلًا "لِمَذَا صَحِّكْتْ سَارَةُ فَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلْدُ وَأَنَا قَدْ شِحْطُ؟ هَلْ يَسْتَحِيلُ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟!" إن الله قادر أن يعطي، حتى بعد الفناء. إنه مستعد أن يأتي، ولو في الهزيع الرابع من الليل.

الله في عمله، لا تعوقه الظروف البشرية. بل على العكس، نرى أن قوته تظهر في الضعف.

إبراهيم بعد أن ولد له اسحق، مرت سنوات طويلة، ووجد أن عبارة "نجوم السماء ورمل البحر" لم تتحقق، فترك مواعيد الله، ولجا إلى طرقه البشرية، وعاد وأخذ (قطورة)، فولدت له بنين كثرين (نك 25).

إن الشك في تحقيق وعد الله، يلجم الإنسان إلى الحيل البشرية. فيعتمد على ذكائه، أكثر من اعتماده على الله.

وقد يعتمد على الغير، مثلما فعل يوسف الصديق...

طالت المدة به وهو مظلوم، ظلمه أخوته وأقوه في بئر، وباعوه كعبيد. وظلمته امرأة فوطيفار، وألقى في السجن وطالت به المدة، ولم يتدخل الله، ولم ينقذه... وأخيراً قال يوسف لرئيس السقاة "إِذَا ذَكَرْتِنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ، تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذَكُّرُنِي لِفِرْعَوْنَ وَتُخْرِجُنِي مِنْ هَذَا الْبَيْتِ" (نك 40: 14).

وفي اعتماد يوسف على ذراع بشرى، كان رد الكتاب هو "ولَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ رَئِيسُ السُّقَّاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ" (نك 40: 22).

مهما طالت المدة، لا يصح أن نشك في تدخل الله، وفي معونته. إنه لابد أن يأتي، مهما تأخر، أو بدا متأخراً.

وقد يكون سبب الشك هو الخوف، أو الخطر المحيط:

بطرس مشى مع المسيح فوق الماء، والمسيح ممسك بيده، ثم خاف وبدأ يشك، فوقع في الماء... واستحق توبيخ رب له: يا فَلِيلَ الْإِيمَانِ، لِمَذَا شَكَّتْ؟!

ترينا حادثة بطرس، إنه ممكناً للإنسان أن يشك والرب ممسك بيده!

الإنسان القوي، لا يعتمد إيمانه على الوسائل الخارجية، إنما على ثقة قلبه بالله وحفظه ومواعيده. حتى إن كان لا يرى معونة الله، ولكنه يثق بوجودها. إن الله يعمل، حتى لو لم نشعر.

قال بولس عن الإيمان أنه "الإيقان بامور لا ثري".

فلنبعد إدعاً عن الشك، لأنه يلد خطايا كثيرة.

لما عصفت الشكوك بالشعب في البرية، وقع في تذمرات عديدة جداً وقال موسى "هَلْ خَرَجْتَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لِتَهْلِكَنَا فِي الْبَرِّيَةِ؟!" وفكروا في عزل موسى، وتعيين آخر.

وهكذا قادهم الشك إلى التذمر، وإلى الثورة على الله وعلى نبيه، بل قادهم الشك إلى عبادة الأصنام.. كما قاد إبراهيم إلى الطرق البشرية، وقاد رفقه إلى الكذب والخداع، وقاد حواء إلى العصيان.

والشك يتحول داخل الإنسان إلى جحيم.. بطرس وكان محكوماً عليه بالإعدام، نام في السجن نوماً عميقاً، حتى لكره الملاك ليوقفه أما الإنسان المحارب بالشك، فلا يستطيع أن ينام، تضغطه الأفكار حتى تحطمها..

فالشك يورث القلق والاضطراب، ويورث التعب والأرق، ويفقد الإنسان سلامه الداخلي، وسلامه مع الناس، ومع الله.

أما الإيمان فيعطي راحة للنفس، وفرحاً، وهدوءاً داخلياً. إن يحاربني جيش، فلن يخاف قلبي. وإن قام على قتال، ففي هذا أنا مطمئن." إن سرت في وادي ظليل الموت لا أخاف شرراً، لأنك أنت معي".

الشك قد يكون سببه الخوف، و نتيجته الخوف أيضاً.

لما خاف التلاميذ شكوا، وأنكروا المسيح. ولما شكوا، خافوا، واحتباوا في العلية.. الشكوك تجلب مخاوف، وبها يتوقع الإنسان أخطاراً وأخطاء غير موجودة الشك عذاب. وكما قال البعض "إنه بسهولة يدخل الشك إلى قلب الإنسان، ولكنه بصعوبة كبيرة يخرج منه".

وقد يكون سبب الشك، الوسط المحيط، كما حدث للمجدلية. لأن الشك قد يتغلب بالعدوى من إنسان إلى آخر.

إذا عاشرت المحاربين بالشك، قد ينقلون إليك شكوكهم.

مربي المجدلية رأى المسيح بعد القيامة، وسجدت له، وأمسكت بقدميه، وسمعته يقول لها "إِذْهَبَا فُولًا لِإِخْوَتِي أَنْ يَدْهِبُوا إِلَى الْجَلْلِيلِ، وَهُنَّاكَ يَرَوْنِي" (متى 28) ولكنها لما أخبرت التلاميذ بالقيامة ولم يصدقوها كما لم يصدقوا تلميذي عمواس (مر 16). ولما ذهبت مع النسوة وأخبرن التلاميذ بالقيامة، "فَتَرَاهُمْ كَلَامُهُنَّ لَهُمْ كَالْهَذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ" (لو 24: 11). حينئذ دخلت أفكار الشك إلى قلب المجدلية. عدوى الشك انتقلت إليها، وأفكار الشكوك التي نشرها الكهنة انتقلت إليها، وضاع إيمان المسكينة وقالت "أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ" (يو 20: 2، 13، 15).

الشك يعمي الإنسان، ينسيه الحقائق، ينسيه وعد الله، بل يغلق ذهنه حتى عن المنطق السليم.

بالنسبة إلى المجدلية، أنساها الغير الفارغ، وبشري الملائكة، ورؤيتها للمسيح، وكلامه لها، وكلامه السابق عن قيمته. أنساها الشك كل شيء.

على أن الكتاب المقدس كما قدم لنا أمثلة من أشخاص وقعوا في الشكوك، قدم لنا أمثلة لآخرين ثبتو في الإيمان:

مثل موسى النبي، الذي ضرب البحر بعصاه، ومشي فيه دون أن يشك. ومثل داود النبي الذي تصدى لجليلات الجبار، ولم يشك في أن الله سيحبسه في يده..

ساعد هؤلاء على عدم الشك، خبراتهم الإيمانية السابقة.

نلاحظ أيضًا أن الإنسان الذي يشك في محبة الله ومعونته، ما أسهل أن يشك في الناس... كما نلاحظ أن هناك أشخاصاً لهم طبيعة شكاوة يدخلون الشك في كل أمر.

إن لم يأتهم خير، يشكون في مراحم الله. وإن أشعفهم رب خيرات، يشكون في دوامها وثباتها...

العجب أن هناك أنسًا طالما عمل الله معهم رحمة، ومع ذلك فإنهم يشكون. ينسون أعمال الله السابقة، وتغلبهم مشاعر الشك، وتتركهم في قلق وخوف.

والشك نقص في الإيمان، ونقص في المحبة، وضعف في الطبيعة البشرية، ونسيان للماضي وما فيه من حب ومن بركة.

ليت الله الذي وهبنا معونته، يهينا أيضًا الثبات وعدم الشك.